

الوعظ الديني

وظيفة اجتماعية قبل كل شيء

بقلم الأستاذ سيد قطب

لعل الإسلام أشد الأديان عناية بتكوين المجتمع الصالح ، واهتماما بوضع الأسس التشريعية الدقيقة لقيام العالم الفاضل ، فلم يكن همه إعداد النفوس للآخرة وحدها ، بل اهتم قبل ذلك بإعداد النفوس لهذه الحياة الدنيا ، وجعل هذه وسيلة لتلك ، وحرص القرآن على أن يكرر صفة أهل الجنة ، بأنهم ، ” الذين آمنوا وعملوا الصالحات “ .

وإن المتدين ليستطيع أن يقول دون أن يخشى على إيمانه : انه اذا كان الدين الاسلامي قد جعل الدنيا وسيلة للآخرة ، فهو كذلك قد جعل الآخرة بشوائها وعقابها وسيلة لصالح الدنيا واستقامة أمورها ، وضمان العمل الفاضل فيها .

ونحن نعلم هذا الدين ونشوه غايته الكبرى ، حين نجعله ديناً آخر ويا لحسب ، ونقف غايته على إعداد الناس للآخرة ، ونجعل من همه تغيير الحياة الدنيا بمعنى احتقارها وإهمالها وترك العمل لها .

هذه مقدمة ساقى إليها ما أسمعه معظم الأحياء من الخطب المنبرية في أيام الجمع بالمساجد ، من حض على احتقار الحياة والخط من شأنها وترك مباحيها ومحاسنها ، بل من إنكار هذه المحاسن والمباحي ، باعتبار أن الدين يوحى بمثل هذه الخطب .

وأنا أفهم أن الدين الذي يتضمن كل هذه النظم التشريعية ، والذي يتدخل لتنظيم الأحوال الشخصية ، به المعاملات والعقوبات ، هو دين يعنى بهذه الحياة الدنيا أشد العناية ويحمل لها قيمة ووزناً .

وهذه الخطب التي تنحو هذا النحو — في هذا العصر بصفة خاصة — خطب شاردة عن فهم روح الدين الصحيح ، ينبغى التنبيه الى خطورها الى جوية الشعب وصحة شعوره بالحياة ، واتجاهه في آماله وأعماله .

ولحسن الحظ إن الشعب المصرى شعب متدين بطبيعته، لا منذ الاسلام فقط، بل من عهد الفراعنة على اختلاف الأديان التى اعتنقها، والى أخلص لكل منها فى حينه، لأن طبيعة الإيمان جزء من كيانه.

وإذا كان من حسن الحظ أن الشعب المصرى متدين، فليس من حسن الحظ أن يكون الوعظ الدينى سالكا هذا المسلك المنفر من الحياة وطياتها، الداعى الى الزهد فيها بخيرها وشرها. على أن الزهد الذى تصوره هذه الخطب ليس هو الذى يدعو اليه الاسلام، بل لا أغالى اذا قلت إن الاسلام يكره مثل هذا الزهد الذى تكون عاقبته إهمال شئون الدنيا. وها هو ذا عمر بن الخطاب أزهد خلفاء المسلمين لم يدع العمل للحياة ولتقوية الأمة الإسلامية وإنشاء الامبراطورية العربية. وفى معنى حديث نبوى: أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله: فلان أفضلنا لأنه يقضى يومه بالمسجد فى العبادة والصلاة. فسأل: ومن يطعمه ويسقيه؟ قالوا: كلنا نطعمه ونسقيه. قال: كلكم أفضل منه!

على أننا فى عصر تراحم وغلاب بين الأمم والشعوب، فاذا هانت علينا هذه الحياة الدنيا، لم نجد حافزا فى أنفسنا لإصلاح المجتمع واستكمال أسباب القوة، وأضعنا بهذا ديننا ودنيانا.

إن مباح الحياة وطياتها كنوز صالحة للاستثمار، صالحة لتهديب النفوس وتصفية أكرادها. وليست هذه المباح كلها رجسا من عمل الشيطان، ولا مفسدة للنفس والقلب ولا مبعدة لهما عن الدين.

وإن الدعوة الى الاهتمام بجمال الحياة فى كل ما يتضح فيه الجمال، لهى دعوة الى رقى الذوق وتفتح القلب وصفاء الروح، فهى فى صميمها دعوة الى الرقى والتهديب، وسير فى الطريق التى يدعو اليها الدين. وليس هناك أى تعارض بين هذين الاتجاهين.

وهذه الحياة جميلة وعظيمة ما فى ذلك ريب، وإذا كان فى الآخرة للعوادين ما هو أجمل وأعظم، فإن هذا الأجل والأعظم صورة مكبرة نقية من جمال الحياة ومتعتها، فكيف نقول مع هذا إن الدنيا حقيرة لا تستحق العناية، وكيف نسيخ لأنفسنا أن نمر بهذه الفترة مغمضى الأعين، نحسب هذا من الدين وما هو منه فى شيء!

وإن الرجل الذى يدرك جمال هذه الحياة فيتطلع اليه فى زرقة السماء الساجية، وطلعة القمر البهيجة، وسكون الليل الرهيب، ويتسمعه فى دوى الرعود، ونفحات النسيم، وههمة الموج على الشاطئ، ويتلمسه فى الجبل الشاخ، والوادي الخصيب، والفقر الموحش، والنهر المنساب والبحر المسجور، ويعجب به فى الوجه الصبوح، والصوت الحنون، والفعل الكريم. إن هذا الرجل لأعمر قلبا بالإيمان، وأقرب نفسا الى الله، وأصفى روحا فى الأرض من كثيرين لا يتطلعون الى مثل هذا الجمال. وإن هذا الاحساس بالجمال لىأى بكثير من النفوس عن الشر والرجس لانهما قبيحان يشوهان فى نظره جمال الحياة الفتان!

على أنه فيم كان الوعظ كله منصبا على الدعوة الغامضة للآخرة، والخط المجمل من شأن الدنيا ؟ وما قيمة هذا في إصلاح النفوس ؟ ألا إن قصارى مثل هذه الدعوة فيما أرى أن تشمرنا بالكآبة والحزن، وأن تستر عنا متاع الحياة الطيب وجمالها البريء، دون أن تقربنا للصالح، أو تدفعنا الى عمل إيجابي يفيد منه المجتمع، ويصلح به العالم، فهذه نعمة يجب أن نتخفى من الخطب المنبرية ، ليتجه الوعظ الى علاج عيوب المجتمع المصرى وهى كثيرة .

تنفنى في هذا الشعب عيوب وأمراض تضر الدنيا وتخل بالدين ، فلنستغل تدين الشعب في إصلاح تلك العيوب، وتصحيح هذه الأمراض عن طريق الدعوة الدينية، وكلما لمس الخطباء والوعاظ حياتنا اليومية الراهنة في خطبهم وجدوا آذانا أكثر إصغاء ، وقلوبا أشد تفتحا ، وكانت خطبهم حية لأنها تستمد موضوعها من الحياة .

على أن توجيه الوعظ الى الجانب الاجتماعى ليس عملا هينا ولا ميسرا لكل خطيب في مسجد ، فإنا أذكر أننى حضرت مرة صلاة الجمعة في مسجد صغير كانت غالبية المصلين فيه من العمال، وعامة الباعة وذوى الحرف الصغيرة. أفيدرى القارئ فيم كانت خطبة الخطيب ؟ لقد كانت تدور حول واجب الأغنياء نحو الفقراء ! من بر وإحسان وإخراج زكاة وتوزيع صدقات . .

ولقد خرج المصلون وهم يتهايمسون قائلين : إن يوجه الخطيب هذا الكلام ؟ ونحن فقراء، ولم تفرض علينا زكاة ولم يفرض علينا إحسان ؟ ولماذا لا يذهب فيوجه كلامه الى الأغنياء الذين عناهم الله عند ما وصى بالبر والإحسان والزكاة ؟

مثل هذا التوجيه دون مراعاة للمخاطبين خطر على طمأنينة النفوس وقناعتها ، وبذر لبذور سامة لا يتنبه اليها أولئك المتكلمون باسم الدين .

وفي اعتقادى أنه يجب تنسيق العمل بين وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الأوقاف على توجيه الأئمة في المساجد توجيهها صالحا، وعلى اختيار خطباء ذوى مواهب خاصة متصلين بالعالم الحى وعاشين بين الحقائق الواقعة لا بين ما يقرأون من كلام محفوظ .

ويجب أن نضيف الى الدعوة المجردة للإصلاح باسم الدين وحده، تنمية روح الإحساس بالخير، وحبه لأنه خير، والتفكير من الشر لأنه شر، وأن نجعل صلاح الحياة وفسادها محورا للحض والنهى ، لأننا نعيش في هذه الدنيا ، ونشارك في هذا المجتمع ، ولا نستطيع إهماله والفض من شأنه ، ونحن في عالم الأحياء !

سيد قطب